من عبر الإسراء والمعراج

حينما رجعت إلى سورة الإسراء أستعيد معانيها فى ذكرى الإسراء والمعراج ، وجدت أن الله تعالى بعد أن ذكر الجانب المعجز فى الإسراء فى قوله : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » [الإسراء : ١] أكد جوانب أساسية فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام منها :

أولا : أنه بشر .

ثانياً : أنه رسول .

ثالثاً : أن الصراع بينه وبين الباطل إنما يسير على أساس من سنن وقوانين ، لو وعتها الأمة وأرادت بها نصر الله ، لوصلت إليه . وأن أمر الحياة التى أقامها الإسلام ليس خوارق عادات ، وإنما عرق وتعب وجهاد وتضحيات على طريق طويل ، من بعده النصر إن شاء الله .

١ ــ طبيعة الرسالة

وأرادت قريش أن تتحدى النبى عليه الصلاة والسلام بالخوارق الكونية ، وسجل الله هذا فى سورة الإسراء فحكى عنهم :

«وقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لنا من الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تفْجِيرًا * أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كما زَعَمْتَ علينا كِسفاً ، أو تَأْتِيَ باللهِ والملاَئِكَةِ قَبِيلا * أو يَكُونَ لكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ ، أو تَرْقَى فى السماء ، ولن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه »

فماذا كان الرد الذى أمر الله رسوله أن يقوله ؟

«قلْ : سُبْحانَ رَبِّى ! هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَرًا رَسُولاً » .

[الإسراء : ٩٠ ــ ٩٣]

إن الأمر بينى وبينكم ليس أمر خوارق كونيه . والتحدى الإلهى قائم بالقرآن الكريم . وفى سورة الإسراء نقرأ قبل الآيات السابقة :

«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يأْتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأْتون بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

[الإسراء : ٨٨]

ثم يعقب على هذا بقوله : « ولقد صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فى هذا

القرآن من كل مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » .
[الإسراء : ٨٩]

ويسوق ربنا أكثر من آية تدل على أن التحدى الأكبر إنما هو بالقرآن ، وأن الهدف الكبير من الإيمان أن يعمل الناس صالحاً وفق ما أراده الله لهم ربهم من رحمته . . « وما مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » . [الإسراء : ٥٩]

وإن القرآن ليؤكد مسئولية الفرد وأنها قائمة على ما يعمل ، فيقول الله فى سورة الإسراء : «وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً . مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » . [الإسراء : ١٣ — ١٥]

فى هذا الضوء الذى يعلمنا فيه ربنا أن نتدبر ما ضربه لنا من كتابه ، يمكن أن ننظر إلى المشاهد التى جاءت فى كتب التفسير والسيرة عن الإسراء والمعراج . ولقد يطول وقوف بعض الباحثين عن الإسراء والمعراج : بالروح كانا أم بالجسد . ولكن معجزة القرآن ، بكل ما جاء فيها من تسجيل لذلك كله ، هى الباقية : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . [الحجر : ٩]

والذى سيسألنا عنه ربنا ، بعد التصديق ، هو الفهم والتطبيق . ومن

أجل ذلك ربط بين التلاوة والسجود، فى خواتيم سورة الإسراء: فقال تعالى فى وصف القرآن: «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وبِالْحَقِّ نَزَلَ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً ونَذِيراً * وقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ على مُكْثٍ (أى على مهل) ونَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً * قُلْ: آمِنُوا به أو لا تُؤْمِنوا، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ، إِذا يُتلى عَلَيْهِم، يَخِرُّونَ الأَذْقانِ سُجَّداً * ويَقُولُونَ: سُبْحانَ رَبِّنَا، إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً» [الإسراء: ١٠٥ — ١٠٩]

هنا نجد الربط بين الكلمة والحركة. بين القول والفعل. بين الاقتناع والتنفيذ.

فما العبر الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية التى يمكن أن نستفيدها من الإسراء والمعراج، تطبيقاً فى حياتنا، ودفعاً لتطورنا؟ وما الآيات التى رآها النبى عليه الصلاة والسلام والتى كانت هدف الرحلة فى قوله تعالى: «لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». [الإسراء: ١]

٢ — إنسانية واحدة

عندما أسرى الله بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى جمعته مع الأنبياء صلاة واحدة. اجتماع صعد فوق حدود الزمان والمكان، ليضم الإنسانية ممثلة فى قادتها الكبار: رسل الله وأنبيائه. والصلاة توجه إلى الله تعالى بالقلب واللسان والحركة. ألا ترى فى هذا توجيهاً

إلى الإنسانية أن تكون على طريق واحد للخير ؟ أليست هذه الصورة هى الهدف الكبير الذى نسعى إليه ؛ وما زالت البشرية تتعثر دونه ؟ أليست هذه هى عقدة المجامع الدولية : إذا اجتمعوا قالوا غير الحق وحكموا بغير الحق ؟ قضيتنا على الصعيد الدولى . . هل تنقصها الحجة والبرهان ؟ حقنا فى الأرض السليبة والمسجد الأقصى ؟ لا . وإنما الذى ينقص العالم إذا اجتمع قادته، أن يقولوا الحق ، وأن يكون فى اجتماعهم روح الصلاة ؛ وأن يتجهوا إلى هدف واحد كبير . . يتجهوا إليه بالقلب واللسان والجوارح . بل إننا لنجد فى الأحاديث أوصافاً للأنبياء ، كما رآهم النبى عليه الصلاة والسلام فى هذه الليلة المباركة :

منهم من غلبت عليه الأدمة (وهى السمرة) أو الحمرة أو البياض، ومن فى ملامحه القوة والأسر ، ومن غلب عليه الحسن . ألا نرى فى هذا أيضاً باقة إنسانية تتساقط دونها حواجز اللون والتفرقة العنصرية ، التى ما زالت تعانى منها مجتمعات قطعت مراحل واسعة من التطور المادى ، بينما ظلت فى طفولة عقلية من لون البشرة ؟ إنها لا تستطيع أن تنفذ إلى ما وراء البشرة من جوهر الإنسانية الواحد ، ذلك الجوهر الذى يبينه الله بقوله : « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعَارفوا ، إنَّ أَكْرَمَكمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إنَّ الله عَليمٌ خبيرٌ » [الحجرات : ١٣] .

وقول النبى عليه الصلاة والسلام « أيها الناس : كلكم لآدم . وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم » .

٣ ـ تكوين الفرد

وتعرض علينا القصة بعد هذا ثلاثة مشاهد لتكوين الفرد .

الأول : نظرته إلى الدنيا : فقد صورها ربنا فى امرأة متزينة حاسرة فأعرض عنها الرسول عليه والصلاة السلام .

الثانى : عندما أتاه جبريل بإناءين من خمر ولبن : فأعرض عن الخمر ، وشرب من اللبن .

هنا أمران سلبيان : إعراض عن متع الدنيا الزائلة ، وعن المطعم الحرام ، وترفع عنهما .

الثالث : ثم يُعرض عليه مشهدٌ إيجابى لقوم يزرعون فى يوم ، ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان . هؤلاء هم المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم حسناتهم إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين . شعار الأمة المجاهدة أن ترتفع فوق الدنايا ، وألا تقبل إلا طيباً ، وأن تتخذ من الجهاد سبيلا إلى نيل حقها .

الزهد هنا فى زينة الدنيا ليس زهداً سلبياً عاجزاً ، وإنما هو زهد القادر الذى يرتفع بوجوده فوق شهوات الحياة ، إلى العمل الدائب من أجل غاية كبيرة . والجهاد لا يقتصر فى مضمونه على جانب من جوانب الحياة : فالذى يقف فى خط النار مجاهد ، والذى يرد عادية ماء أو نار مجاهد ، والذى يبذل الجهد الدائب فى معركة الإنتاج مجاهد . يقول عليه الصلاة والسلام : « من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا . ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا » . مجاهد لا يأكل إلا طعاماً طاهراً ، يعرف حق ربه ووطنه . . مجاهد معرض عن الشهوات ، ومقبل على العمل الدائب فى كل مجالات الحياة التى ترفع من شأن مجتمعه : هذا هو الذى يزرع ويحصد ، ثم يزرع ويحصد .

٤ ـ تكوين الأسرة

فإذا ما نظرنا إلى هذا المجاهد فى جو أسرته ، وجدنا دعوة قوية من ربنا فى هذه الليلة المباركة أن نحيا فى طهر .. والدعوة موجهة إلى الأسرة برجالها ونسائها . وتصور ليلة المعراج الإقبال على الحرام كإقبال على لحم خبيث ، وترك الطعام الطيب ، كما تصور بشاعة المستهينات بالعرض . وما لهن من عذاب . فالدعوة إلى الطهر موجهة إلى الأسرة كلها ، وتتكامل مع الطعام الطاهر والإعراض عن الشهوة ، والإقبال على الجد والجهاد . وفى هذا الجو العفيف النظيف ، تتكون الأجيال الصالحة ، التى تستطيع أن تحمل أمانة السير بالمجتمع فى طريقه الصاعد إلى الخير .

٥ ـ مجتمع لا استغلال فيه

فإذا ما وسعنا الدائرة من الأسرة إلى المجتمع ، وجدنا ثلاثة مشاهد فى هذه الليلة المباركة تحارب الاستغلال ، وتدعو إلى إقامة المجتمع على أساس كريم من التكافل وأداء حق الله فى المال .

أولا : مشهد أقوام لهم شفاه كمشافر الإبل يلتقمون من النيران فى أجوافهم ، فلا تستقر فيها : أولئك أكلة مال اليتيم وفيهم يقول ربنا :

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ».

[النساء : ٩ ـ ١٠] .

ثانياً : مشهد أقوام بطونهم كأمثال البيوت يريدون القيام فيعجزون ، يطؤهم السابلة بأقدامهم : أولئك الذين يأكلون الربا :

« لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » [البقرة ٢٧٥]

ثالثاً : مشهد أقوام لا يكادون يجدون ما يستر أجسادهم ، يسرحون كما تسرح الإبل والأنعام . ويأكلون قطع النيران أولئك الذين لا يؤدون حق الله فى أموالهم .

المشهد الأول : استغلال صغير لا يقدر على الدفاع عن نفسه .

المشهد الثانى : استغلال محتاج وقع فى ضائقة .

المشهد الثالث : استغلال الشعب بالتهرب من دفع حقه إلى الدولة لتنظم مصارفه لصالح المجتمع .

هذه هى أنواع الاستغلال الثلاثة التى أبرز لنا ربنا صورها وحقيقتها . . ألا نرى فى سير السابلة وهى تطأ جسوم المرابين وبطونهم التى التى ينوءون بحملها ، صورة من زحف أصحاب الحقوق إلى هدفهم وهم يطأون الاستغلال تحت أقدامهم ؟

إن الذين يتهربون من حق الشعب إنما يطعمون أنفسهم نيراناً . وصدق الله العظيم حيث يقول : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » . [التوبة : ٣٤ ـ ٣٥] .

٦ ـ شرف الكلمة

وتؤكد هذه الليلة المباركة قيمة شرف الكلمة فى أربعة مشاهد :

الأول : مشهد أقوام تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ؛ كلما قرضت عادت كما كانت : أولئك هم خطباء الفتنة .

الثانى : مشهد جحر صغير ؛ يخرج منه ثور عظيم مندفع ، يريد أن يرجع إلى الجحر الصغير فلا يستطيع : هذا هو الرجل الذى يقول الكلمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

الثالث : مشهد أقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه ويقال لهم : « كل كما كنت تأكل من لحم أخيك » : أولئك الهمازون المشاءون بالنميمة .

الرابع : مشهد أقوام لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم : أولئك الذين يأكلون لحوم الناس ؛ ويقعون فى أعراضهم .

هذه مشاهد أربعة تدعو الإنسان إلى أن يقول الحق. ويحتفظ للكلمة بشرفها وقدسيتها التى أرادها الله لها .. القدسية التى جعلت القراءة أول أمر من عند الله تبارك وتعالى فى قوله : «اقرَأْ باسْمِ ربِّكَ الذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنْسَانَ من عَلَقٍ * اقرأْ وربُّكَ الأكرَمُ * الَّذى علَّمَ بالقَلَمِ * علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم »[العلق : ١ ـ ٥] والتى تبدو فى أن أول ما أقسم به ربنا كان القلم فى قوله تعالى : « ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » [القلم : ١]

شرف الكلمة الذى يدعونا إلى ألا نخوض فى أعراض الناس ،

ولا نسعى بينهم بالنميمة والسوء ، ولا نشيع الفتنة أو ندعو إليها ، أو نقول الكلمة غير المسئولة : تخرج من الفم كما يخرج الثور الهائج من الجحر ، مندفعة تحطم ما فى طريقها ، ولا تستطيع أن تعود بعد أن قيلت . .

شرف الكلمة التى ينبغى أن يراعيه كل فرد منا ، فى أى موقع من مواقع المسئولية يكون فيه . وكل منا فى عمله إما قائد أو جندى أو زميل ، وتعامله مع من فوقه فى المسئولية أو دونه أو فى مستواه ، ينبغى أن يكون على أساس متين من قول الكلمة المسئولة الشريفة : «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» [إبراهيم ٢٤ – ٢٥] .

إن الذين يسعون بالإشاعات فى وقت محنة ، هم كخطباء الفتنة . والذين يمشون بالسوء من القول ، إنما يقتطعون من لحومهم أو من لحوم إخوانهم . . هكذا يعلمنا ربنا بالمشهد التصويرى ، ويضرب لنا المثل بعد المثل ، توضيحاً لمعالم المجتمع الشريف الذى يسعى إليه الإسلام ، هذا المجتمع الذى بدت ملامحه فى ليلة الإسراء والمعراج ، والذى يقوم على أسس عريضة :

أولها : إيمان الفرد وإيجابيته وترفعه عن الشهوات ، وإقباله على العمل مجاهداً يكسب الحلال ويطعم الحلال ويؤدى حق ربه ووطنه .

الثانى : تكوين الأسرة المؤمنة على أساس من طهر رجالها ونسائها ، وفيهم تتمثل صفات المواطن الصالح .

الثالث : تكوين مجتمع يحارب الاستغلال فى كل صوره : استغلال الصغير والمحتاج والمدينة .

الرابع : الاحتفاظ بمكتسبة بشرفها وقدسيتها .

٧ ـ خاتمة

هذا تصوير الكريم لبعض ملامح المجتمع الذى أراده ربنا لنا ، كان قبيل الهجرة ؛ بعد ثلاث سنوات من الحصار الاقتصادى ، قضاها الصحابة فى شعب بنى هاشم : حتى ذوت أعواد الرجال والنساء ، وهزل الصغار فكانوا لا يجدون القوت ولا الكساء .

كان فى عام الحزن بعد وفاة خديجة ، القلب الكبير الحنون . كان بعد وفاة عمه الحبيب أبى طالب ، الذى طالما حال بين كفار قريش وبين كثير مما أرادوا بالرسول عليه الصلاة والسلام . كان بعد عودته من ثقيف ، وقد ذهب إليها فى الطائف ، يدعوها إلى الإسلام فردته ردا غير جميل ، وأغرت به عبيدها وسفهاءها ، فرموه بالحجارة حتى دميت أقدامه ، فلجأ إلى ظل كرمة فى بستان ، وقد أرهقه السير على الصخر بأقدام دامية ، وأرهقه تكذيب القوم به ، وشماتة قريش التى تنتظره ، فوجه ناظريه إلى السماء وناجى ربه :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى . ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ،

أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[١] .

ويعود إلى مكة . ويكون الإسراء والمعراج تصويراً للمجتمع الجديد ؛ بينما كل ما حول الرسول لا تبدو فيه بوارق أمل . . ويأتى الإسراء أولا تخفيفاً من الألم الثقيل الذى يحمله الرسول ، ويداً حانية تمسح عن قلبه بعض ما فيه من ألم . وتأتى الصلاة معراجاً لأرواح المؤمنين ، تربطهم بمدد لا ينقطع من الإيمان بالله ، إيماناً يدعوهم إلى العمل الدائب الشريف .

كنت يا محمد وحدك والسفهاء يرمونك بالحجارة وأقدامك دامية . . فهذا جبريل معك ، وهذا البراق أمامك ، وهذه صحبة الأنبياء ، وصلاة تجمعكم جميعاً . . أقدامك المتعثرة على صخر طريق الطائف ، تخترق الآفاق فى الإسراء دون أن تمس الأرض.. الألم الذى جعلك تناجى فتقول : (إلى من تكلنى؟) قد بدله ربك أنساً . وهؤلاء الأنبياء من حولك تجمعكم صلاة .

وفى وسط الألم الذى تعيش فيه ، هذه صورة المستقبل . صورة المجتمع الذى تسعى إليه . مجتمع غير قائم على الاستغلال . مجتمع يقدس الكلمة الشريفة ، قائم على الطهر والإيجابية . ويعود الرسول ليواجه قومه وأصحابه بدفعة قوية جديدة ، ويدأب من جديد فى عرض نفسه على القبائل . وشيئاً فشيئاً تشرق طوالع المجتمع الجديد ، وتتكون قاعدة الإسلام فى المدينة : صورة على الأرض مما رآه الرسول فى ليلة الإسراء والمعراج .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٣٤٥ ط. المعارف ، القاهرة .